



حديث ابن أبي هالة

النص من الناحية الأدبية (*)

وفي سبيل ذلك يستطرد الوصف إلى جوانب وملامح، وصفات لا يتاح إدراكها للنظر العابر، بل وللناظر المتأمل، ما لم يكن ممعناً في تأمله، دقيقاً في ملاحظته.

فهو مثلاً يصف شعره.. فلا يكتفي بأن يبين أي نوع من الشعر.. ولكنه يذكر مداه.. ثم يفصل هذا المدى.. فهو إذا



عبد العزيز الرفاعي - السعودي

فرقه كان من الوفرة بحيث يصح فرقه.. وإلا فهو إلى شحمة الأذن.

وهو حين يصف الحواجب، يذكر أنها غير مقترنة.. ولا يكتفي بذلك، بل يصف ذلك العرق الذي يبرزه الغضب.. وهو هنا يستعمل لفظة (يدره) فيستديره من در الضرع.

وترى جانباً من دقته وبراعة وصفه، حينما ينعت أنفه عنه.. فهو يقول عنه: (أقنى) أي فيه انحناء.. ولكنه يستدرك بسرعة أن هذا الانحناء من الخفاء، بحيث لا يدركه إلا المتأمل.. وإلا فإن من لم يتأمله يحسبه أشم.. أي منتصب العرنين، وفي الحاليتين تنهياً صورة جمالية.. تتوفر عند المتأمل وعند غير المتأمل على سواء.. فهو أقنى من غير كبير انحناء، وهو أشم من غير مبالغة.

إن مجرد إلقاء نظرة عابرة على نص حديث «هند بن أبي هالة» رضي الله عنه، تدل على أن هذا الصحابي، كان يتمتع بالحاسة الأدبية، إلى جانب دقة ملاحظته، التي تتجلى في استيعابه الوصفي، وقدرته على استحضار هيئة رسول الله ﷺ.. وإفراغ أوصافه في قالب فني ممتع.

ولقد أدرك القدامى، مدى هذه

الطاقة الوصفية لديه، فعبروا عنها بقولهم: إنه كان (وصافاً)، أي توفرت عنده الملكة الوصفية.

وبإجالة نظرة تأملية في الحديث، ندرك أن هذا الصحابي الأديب، لم يقف بأوصافه الدقيقة عند الملامح البارزة، التي يدركها الناظر عادة من الوهلة الأولى.. كالطول والقصر، أو النحافة والسمن، أو اللون.. ولون الشعر.. بل أخذ يعدد الصفات.. صفة خلف الأخرى.. وكأنما هو حريص على أن يرسم صورة كاملة لهيئته ﷺ..

ولعل مبعث ذلك، حرصه على أن يوفر لابن أخته (أعني السيدة فاطمة بنت محمد)، وهو الإمام الحسن بن علي - رضي الله عنهما - صورة تفصيلية لجده تغنيه عن أي وصف آخر.. كيف لا، وهو قد اشتهر بدقة الوصف وبراعته؟

*(مجلة الداعي الشهرية الصادرة عن دارالعلوم ديوبند، بالهند محرم - صفر ١٤٣٢ هـ = ديسمبر ٢٠١٠م - يناير ٢٠١١م،

العدد: ٢٠١، السنة: ٣٥، ص ١٦-١٨).



فنجد من ذلك قوله: (يتلأأ وجهه تلالؤ القمر ليلة البدر).

فإنه وإن كان وصف جمال الوجه بالقمر من الأوصاف المتداولة عبر الأزمان والعهود.. إلا أننا نجد صاحبنا يعطينا صوراً متتابعةً، تجعل هذه الصفة، ذات حركة معينة، تبعتها عن الوصف التقليدي.. فهو (تلالؤ القمر) فيقرن التلالؤ بالقمر.. ولا يكتفي بهذا الحد، فيزيد أن المقصود بالقمر هو ليلة البدر، الذي لا يعتوره فيها نقصان، ولا تحف به ظلال!.

ونجد مثل هذه اللمحة الفنية في قوله: (كان عنقه جيد دمية في صفاء الفضة).

فالصورة الفنية هنا مركبة متلاحقة.. فقد استعمل للرقبة اسمين متفايرين، أحدهما عنق، والآخر جيد. وربط الجيد بالدمية التي يبالغ صانعها في إبراز جمالها، وإتقان صنعها، ويحتاط لتلا تكون الدمية سوداء أو سمراء.. فيستدرك بسرعة، ليقول: إن ذلك العنق الشريف، كان أبيض صافيًا في صفاء الفضة.. ولا يخفى على المتأمل أن الفضة إذا كانت صافية، برزت بيبضاء رائقة رائعة، يرتاح إليها النظر!.

وتسعف هذا الصحابي الأديب مثل هذه الاستدراكات الفنية البارة، حينما يصف النبي ﷺ بقوله: (بادن) فيخشى أن يظن ظان، أن بدانته قد أدت إلى شيء من الترهل والتهدل، كما يحدث غالب الأحيان للبادنين، فيسرع ليقول: (متماسك) أي أنه لا يعتور بدانته ترهل، بل هو متماسك الجسم، ويمعن في دقة الصورة وضبطها فيقول: (سواء البطن والصدر) أي ليس له كرش متهدلة.. لأن صدره وبطنه على مستوى واحد.. وذلك من تمام جمال الأجسام.

وهو يعطى صوراً وأوصافاً للرسول عليه الصلاة والسلام، لجوانب لا يتهياً لغيره أن يراها فيصفها.. فلقد أتاحت له ظروف نشأته صغيراً في حضن رسول الله ﷺ، أن يدرك من أوصاف بدنه الشريف ما لا يدركه إلا الملتصق به من خاصة أهله وخدمه.. كهذه المسربة، أي الخيط من الشعر الممتد من النحر إلى السرة.. وأن بعض ما يظهر عند تجرده من بعض أثوابه، كان أكثر نوراً.. أو ابيضاضاً من بقية جسمه الشريف، الذي يتعرض للشمس أو المؤثرات الجوية.. وذلك كالصدر والبطن والذراعين والساقين.. غير متمشع بكامل أثوابه التي يتجمل بها عند خروجه إلى الناس كافة.. فهو يقول: إنه عاري الثديين والبطن من الشعر.. غير ذلك الخطل.

ومن دقة وصفه.. ما نعت به قدمي الرسول ﷺ.. فهما (خمصان) وليس فيهما من عيب أو نفور عروق أو أعصاب، إذ هما من فوق مسيحان يسيل عنهما الماء عاجلاً.

ويصف إشارات الرسول ﷺ فيقول: إنه يشير بكفه كلها.. فإذا كان في حديثه ما يدعو إلى العجب قلبها. وإن إشاراته بكفه تتصل بحديثه وتواكبه. وإن من استعمالات إشارته بكفه، أنه كان ﷺ في بعض تلك الإشارات يضرب براحته اليمنى بطن إبهامه اليسرى.. وهذه أيضاً من الأوصاف الدقيقة التي تدل على ملاحظة متفحصة قوية.. وعلى متابعة لحركات النبي ﷺ وعاداته.

ونقف - ولو يسيراً - عند تشبيهاته البارة، التي تدل على تلك الموهبة الأدبية البلاغية، التي أوتيها هند بن أبي هالة، رضي الله عنه.

(لا فضول ولا تقصير). لا زيادة عما يتطلبه السامع.. ولا نقصان عما يحتاج إليه هو، بحسبانه مشرعاً وهادياً ودليلاً لأمته وللناس كافة.

ولا يكتفي ببيان الناحية البلاغية من كلام الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة والتسليم، بل يقف ليشرح الناحية الخلقية في أسلوب كلامه.. فليس أسلوباً جافياً.. حتى لا ينفر من الدعوة كما أنه في الوقت نفسه، ليس أسلوباً ضعيفاً أو خاضعاً أو ذليلاً، فإن الدعوة تحتاج إلى قوة في شخصية الداعي.. ولكنها القوة التي لا تصل إلى الجفاء ولا إلى الكبرياء: (ليس بالجافي ولا بالمهين).

ونجد ابن أبي هالة رضي الله عنه، في ختام هذا الحديث، يصف جمال أسنان الرسول ﷺ، فيستعمل صورة شعرية رائعة.. فهو يصف انضراج شفتي الرسول ﷺ حين تبسمه بقوله: (يفتر) حتى يذكر بافترار الأزهار عن أكمامها.. ثم يقول: (عن حب الفمام) فهو لا يقول: (البرد) مباشرة بل يكتفي عنه، بكلمتين شاعريتين أيضاً، هما (حب) و (الفمام).. ولكل من اللفظين جماله، وجوه الشاعر الرقيق..

إن هذا النص.. يعد نموذجاً جيداً من نماذج النثر الفني في عهد صدر الإسلام، وهو دليل قائم على ما كان يتمتع به الصحابي الجليل: هند بن أبي هالة من موهبة أدبية.

يقول أبو عمر يوسف بن عبد البر في كتاب (الاستيعاب) في ترجمة هذا الصحابي: «وكان هند بن أبي هالة فصيحاً بليغاً وصافاً، وصف رسول الله ﷺ فأحسن وأتقن. وقد شرح أبو عبيدة وابن قتيبة وصفه ذلك، لما فيه من الفصاحة وفوائد اللغة»^(١)

وعندما يريد أن يصف ما قد يظهر من جسمه الشريف في بعض المناسبات بين أهله وخاصته كالذرعين أو الصدر، أو الساقين.. يستعمل كلمة مرهفة بالغة الدلالة فيقول: (أنور المتجرد) أي أن هذه الأجزاء.. المصونة عادةً عن التعرض للشمس والمؤثرات الجوية، هي أشد بياضاً من تلك التي تتعرض لهذه العوامل، ولكنه لا يقول: إنها أشد بياضاً.. ولكنه بحاسته الأدبية الدقيقة يقول: إنها أشد نوراً.. أكثر إضاءةً.. أو أكثر إشراقاً.. ومهما استعملنا من ألفاظ تظل كلمة: (أنور) هي الملائمة تماماً..

ولكي يقول: إن أطراف النبي ﷺ تأخذ شكلاً انسيابياً، لا عيب فيها، ولا نتوء، ولا اعوجاج أو تغضن.. فإنه يدلنا على تلك الصورة الانسيابية بقوله: (سائل الأطراف).

وإذا انتقلنا إلى تصويراته عن صفة منطقته ﷺ نجده يقول: (يتكلم بجوامع الكلم).. فيصور لنا في هذه الجملة، على وجازتها قدرة النبي ﷺ على إيجاز المعاني الكثيرة المستفيضة في كلمات قلائل تضم أو تجمع تحتها شتات كلام كثير، وبذلك كانت كلماته جامعة للكلام.

ولكن ليس معنى ذلك، أنه يفسح المجال للتأويل.. أو للتساؤل.. كلا..! فهو كلام فصل.. حاسم واضح الدلالة.. وهذا أحد استدراكات هذا الصحابي اللماح.

وبحسن إدراكه، لما لكلام النبي ﷺ من أهمية، تأتي بعد أهمية القرآن الكريم عند كافة المسلمين.. فإنه يترث في الوصف.. فلا يقف عند قوله: (كلامه فصل) بل يمتد فيحدد.. كيف كان فصلاً؟ فيقول:

(١) الاستيعاب ١٥٤٥/٤ الترجمة رقم ٢٦٩٩، والمقصود بأبي عبيدة: القاسم بن سلام. وهو صاحب (الفريب) المصنف في شرح غريب الحديث، وكذلك لابن قتيبة كتاب (الفريب)، وقد شرحا ألفاظ حديث ابن أبي هالة، ونقل عنهما الكثيرون.